بلاغة المواجهة والسجال في الخطاب الروائي عند فرج الحوار

ـ رواية في مكتبي جثة نموذجا ـ

أ. د. الطاهر روابنية
جامعة عنابة

الملخَّص:

تعد الرواية مدونة ، تتميز بنوع من المرونة والهجنة التي تمكنها من الانفتاح على مختلف الخطابات ، ويعد السجال أحد هذه الخطابات التي تسكنها وتندس فيها ؛ يقوم الاستعمال السجالي للغة الروائية على الجدل ، والمناورة ، والتضليل ، والمماحكات اللفظية في مواجهة الخصوم الواقعيين أو الخياليين ، كما في رواية :"في مكتبي جثة " لفرج الحوار".

RESUME

On considère le roman comme un corpus souple et hybride, ouvert sur différents genres de discours . la polémique est un discours parmi autres qui habite et se cache dans le roman ; l'usage polémique de la langue romanesque se base sur les controverses , le manœuvre , le duperie , et les querelles verbales , face a des adversaires réels ou fictifs , comme dans le roman fi maktabi jetha – de Faredj Lahouar .

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1324

المقدمة :

يشكل الخطاب – على اختلاف أجناسه وتعددها – مدونات خطابية ، يتناولها الدارسون من وجهات نظر مختلفة ، وبطرائق مختلفة أيضا باختلاف التخصصات التي ينتمي إليها هؤلاء الدارسون ، ويعد تحليل الخطاب مجالا يتسع لدراسة مختلف الخطابات من خلال الكشف عن الإواليات اللغوية التي تتيح للممارسة الكلامية / الخطابية من بناء المعنى وتوصيله للمتلقي بطرائق وأساليب تختلف بأختلاف أجناس الخطاب وباختلاف الموقع والمقام والهوية التلفظية التي يثبتها الخطاب أو يسهم في بنائها من منظور قيمي أو إيديولوجي .

يأتي اهتمام تحليل الخطاب بالخطاب الروائي أكثر من أي خطاب أدبي آخر ، كون هذا الخطاب يتميز بنوع من المرونة والهجنة التي تمكنه من الانفتاح على مختلف الخطابات المتعالية منها والسوقية ، واستيعابها داخل كل متماسك ومنسجم يندرج ضمن عالم الخطاب الذي لا يشكل مجرد انعكاس للعالم ، وإنما يسهم في بنائه وتشييده ، وتبريره بأساليب ذات كفاءة حجاجية إقناعية ، وقد يصل الأمر حد السجال إذا كانت الغاية البحث عن الطرق المثلى لمواجهة الخصوم ، حيث يعد السجال قيمة بلاغية ترد في شكل علامات لغوية وسلوكية ، يقوم استعمال اللغة فيها على المناورة التي تصل إلى حد التزييف والتضليل والمماحكات اللفظية ، وهو ما نلمسه في مدونتنا الخطابية : في مكتبي جثة .

يتميز الخطاب الروائية عند فرج الحوار بنوع من الاحترافية التي تجعله يتموقع داخل فضاء من الموازاة أو المعارضة التعبيرية والجمالية ، للممارسة الروائية العربية الراهنة ، حيث يعمل باستمرار على تكريس توجه متفرد يدفع بالخطاب الروائي نحو عدم الاستقرار الوظيفي والقيمي ، وهو ما يجعل من نصوصه الروائية نصوصا مفتوحة تراوغ انغلاقها بوسائل وتقنيات وأساليب تثير الكثير من الجدل حول مدى صفاء هذا الشكل الروائي الجديد وحول معياريته ، بخاصة عندما تلجأ نصوصه إلى أسلوب التهجين ، فتتموقع حركتها السردية داخل جو من الشرح والتفسير ، أو من المماحكات والجدل والسجال وبلاغة المواجهة ، لتعدل بطريقة متطرفة عن المفهوم التقليدي للرواية ، وهو ما يمكن فرج الحوار من الانتقال من الرواية

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1324

الحكاية إلى الرواية الكتاب ، لعلمه أن الرواية العرفانية نسق خطابي يقوم على المماحكات والجدل ومساءلة الراهن بكل أبعاده الجمالية والمعرفية والسياسية والعقدية والقيمية .

وحينما نتحدث عن عدول فرج الحوار عن المفهوم التقليدي للرواية فإننا نعني بذلك إسقاط الحدود بين النص ومحيطه الخطابي الهجين ، وجريان السرد في مسارات شتى تشكل شبكة عريضة من العلاقات النصية وعبر النصية ، أين تتم المواجهة والسجال بين الذوات والخطابات ، إلى درجة تتقوض فيها روائية النص – كما هي بالنسبة لرواية في مكتبي جثة – ويتحول إلى فضاء من الخطابات الواصفة ، والتعليقات والمماحكات والسجال والجدل بين مجموع الهيئات النصية ، وعبر مجموع التساؤلات والحجج والحوارات بين الذوات المشاركة في المسارات السردية لرواية في مكتبي جثة ، يشيد فرج الحوار استراتيجية نصية ذات بنية سجالية ، وهو ما يجعل مشروع الرواية البوليسية يجهض ليحل محله السجال والجدل ، وهو ما يسمح للمؤلف أن ينتصب داخل نصه على مستويي السرد والتخييل، وكأنه ذلك السوفسطائي القديم الذي يحاول أن يخرج الحقيقة في صورة باطلة أو العكس.

فيتحول السرد عن وظيفته الحكائية ليصبح شبه سرد ، أو خطابا سرديا واصفا ، ومن خلاله تنحرف الرواية عن وظيفتها التقليدية لتصبح فضاء للسجال والجدل بين ما يفكر فيه المؤلف ويخطط له ، وما يريد السارد أن يستثمره من برامج ومسارات سردية ، وهو ما يجعل المحكي الروائي في حالة انشطار وخواء ووهم ، وكأنه لا يسعى إلى بناء عالم روائي متخيل ، وإنما يسعى إلى بناء عالم روائي مختلق وهجين ، تهيمن فيه بلاغة المواجهة بين ما هو سردي وما هو من مشمولات الميتاسرد ، من تعليقات وتأملات وتساؤلات حول ما يخطط له المؤلف وما يريد إنجازه ككاتب محترف يوظف معارفه وخبراته لابتداع نص روائي تسكنه البارانويا ، ويفرخ داخله الشك والارتياب، وينقلب فيه التخييل إلى واقع مجسد ، تتحدى فيه المخلوقات الورقية سلطة مبدعها وخالقها ، وتخرق مشروعه محملة إياه ما يترتب عن ذلك من تبعات وأوزار.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1324

1- العتبات النصية مدخل لفضاءات المواجهة والجدل :

تشترك مجموع الخطابات الهجينة التي تتقدم النص الروائي وتحيط به أو تتخلله بدءا بالعنوان "في مكتبي جثة"وانتهاء بالمقطع السردي الواصف الوارد في الصفحة الأخيرة للغلاف؛في تشييد نوع من العلاقات التخاطبية ذات الصبغة الحوارية التي تتوسع باضطراد كلما اقتربنا من الفضاء النصي حيث يتحول التخاطب إلى ضرب من المناقشات المستمرة والمواجهات السجالية المشحونة بالأهواء والآراء المختلفة والمتناقضة،والتي تجد تبريرها روائيا في الطريقة التي تبناها الراوي المجسد"الشاذلي العجمي"وهو نوع من الرواة قال عنه توماس مانTh.Mann في رواية المنتخب (elu) هو من يقرع أجراس روما –وأخضع من خلالها السرد لطابعه الذاتي فجاءت مقصديته ملتبسة،وشمل هذا الالتباس مجمل النص الروائي،فجاء مشروعه السردي كتحد ومراجعة مستمرة لهذه الطريقة، وبذلك بقي مشروعا معلقا بين إرادة هذا الراوي ورغبته، وهذا انطلاقا من أن المعرفة ليست معطى مطلقا، بل تتضمن باستمرار تعديلا وتحويلا لبنى التوسط:فعلى مستوى الإرادة تبدو المعرفة متقلبة متبدلة وذات خاصية محدودة،أما على مستوى الرغبة فإنها يمكن أن تؤول كغريزة سردية مجهضة ومتفسخة[1] ، لارتباطها بمعرفة محدودة وتكرارية، وتجليها من خلال مشروع سردي معلق ومستعاد باستمرار ، ومن خلال صيغ سردية متنافرة تسهم في خلق مشاهد و فضاءات للنقاش والجدل والسجال،حول موت الشخصية الروائية الذي تحول إلى حكاية غريبة متكررة بطرائق مختلفة ووفق رؤى سردية متحولة ومتغيرة ، ومرتبطة بنظام غير مستقر،خاضع لتعديلات داخلية بواسطة المسافة التي تفصل بين رغبة الراوي وإرادته،وهما صيغتان محدودتان دلاليا وقيميا بواسطة معرفة ارتدادية،[2]متذبذبة بين الإثبات والنفي، والرغبة في القول أو الفعل والتراجع عنه،وتكرار الرغبة في القول والفعل بطرائق شتى،وهو ما يجعل التشاؤم والتردد السردي يتضاعف مشكلا مشهدا سرديا مركبا يتم من خلاله عرض مسرحية تكرارية ودائرية للهيئة الخطابية التي تنطلق باستمرار من مقام الإثبات إلى مقام النفي،وكأن التجربة السردية برمتها في هذه الرواية لا تخرج عن كونها مجرد مشروع متفسخ لا يتوفر على كفاءة إنجازيه،ولذلك يمكن اعتباره نسقا سرديا وشبه سردي،وقراءته من منظور جدالي يجعل منه مقاربات جمالية

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1324

وإيديولوجية،ورهانا تأويليا للجدل الثقافي القائم على المجابهة والتغالب والاستعلاء،أو التعسف في استعمال السلطة بقصد التحقير والإكراه،كون المثقف في عالمنا العربي متهما ومشكوكا في مصداقيته وقيمته حتى يثبت العكس.

2-عتبة المحيط النصي الطباعي:

يعلو فضاء هذا المحيط النصي اسم المؤلف /فرج الحوار،وهو كاتب تجريبي يعتبر الكتابة الروائية«حرفة(...)يتوجب على من يمارسها أن يلم بالتقنيات والقوانين التي تحكمها»[3]،حيث يجد القارئ لأعماله الروائية آثار هذه الاحترافية متجلية في الخاصية الحوارية ذات النزوع الجدالي أو السجالي بين ما هو سردي وما هو شبه سردي من الخطابات الواصفة،كالتعليقات الميتانصية التي «تصف عناد الكاتب أو قصور اللغة أو ما شاكل ذلك من المضامين»[4]،حيث يعد هذا التوجه الحواري من مستلزمات العملية الابداعية لا يخلو منه عمل من أعماله الروائية، وقد يصبح مهيمنا في بعضها كرواية الموت والبحر والجرذ،وفي مكتبي جثة،إذ يصل الحوار بين الكاتب ومخلوقاته وعبر توسط الراوي إلى حد تشييد بلاغة روائية يمكن وسمها ببلاغة المواجهة، يقول فرج الحوار «والحقيقة أن النص والمقصود هنا الشخصيات الفاعلة فيه بصورة خاصة،يتحول شيئا فشيئا إلى كائنات مادية يتعين على الكاتب أن يتحاور ويتشاور معها لا أن يلزمها إلزاما بقراراته الجائرة»[5].والحقيقة أن هذا الحوار يتحول في رواية"في مكتبي جثة"إلى نوع من التحدي لما يفكر فيه المؤلف ويريد انجازه فنيا على مستوى المتخيل السردي، إذ تتحول المساجلات والمطاولات والمغالبة الحوارية والأيروتيكية بين الراوي محمد الجرذ وبربارا في رواية الموت والبحر والجرذ إلى نوع من الانقلاب الفني والجمالي غير مسبوق يعد خرقا للمشروع السردي للكاتب وتعليقا لآلته السردية،وتمردا على سلطته التخييلية كونه الخالق والمتحكم في مصير مجموع الهيئات السردية من عوامل وممثلين،ويتمثل هذا الخرق في موت الشخصية الرئيسية/فريد التوازني قبل أن ينجز المسار السردي الموكول إليه، وذلك على إثر محاولة الكاتب «تجريد بطله من اسم

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1324

فريد التوازني الذي كان اختاره له، على أن يستبدله لاحقا برقم،أو يترك الرجل بدون اسم أصلا،فذلك أليق بظروف الحال»[6].

وقد شكل عنوان الرواية "في مكتبي جثة"أول متوالية لسانية ذات دلالة مباشرة على الموت لكنها توجد في وضعية ملتبسة يمكن أن تسهم في إثارة جدل بقدر ما يتصل بالخاصية الأجناسية للرواية يمكن أن يدرجها ضمن أنواع الخطاب البوليسي كالرواية السوداء أو رواية الإثارة roman de suspense،يتصل أيضا بالمضمون الروائي الذي يمكن أن يوصف بأنه مضمون تكراري ملتبس، تكمن إشكاليته في كونه قضية فنية/جمالية تتعلق بسؤال الكتابة وسؤال القراءة،وبالسجال المستمر بين الكاتب والقارئ ، والذي بدأ مع رواية اللغز أو الرواية السر وتوج بالرواية الواقع، التي يشكل فيها التحريف والسلبية والنفي قضية تتعلق بالبناء مثلما تتعلق بالدلالة،إذ أن السلبية تسهم في ربط السؤال الذي يطرحه النص بقوة بجواب محتمل ، وتكيف البناء بواسطة قارئ النص وفق منطق السؤال والجواب،وضمن هذا السياق السجالي يكتسب المعنى الروائي طابعه الخاص ويتجلى كاكتشاف لعلة أو سبب يظل افتراضيا،ومن خلال الحركة الدائرية للحدث يمكن للامقول أن يتأسس ويتمظهر كبديل ديناليكتيكي/جدلي لما قد قيل[7].بطريقة ملتبسة أو غامضة أو تكرارية،قصد إثارة الشك في الطبيعة السردية للمحكي الروائي وفي مقول الخطاب ؛وقد جاء عنوان رواية" في مكتبي جثة "ليعمق هذا الشك ويسهم في إثارة نوع من الجدل حول طبيعة المحكي البوليسي الذي تسعى هذه الرواية لانجاز مشروعه السردي ، والذي أسهم في تكريسه موت البطل الروائي "فريد التوازني« متحديا إرادة الكاتب الذي يحاول إقناعنا بأنه لم يخطط لكتابة رواية بوليسية وإنما "لتطور النص منطقه الخاص ونزواته وأحكامه»[8]،التي حفزت الراوي"الشاذلي العجمي "لأن يحول هذا المشروع الروائي المعلق–الذي أوقع المؤلف في ورطة وجعله يضع أكثر من ترسيمة سردية للتخلص من الجثة القابعة وسط المكتب،إلى مشروع رواية بوليسية ذات محكي تكراري يتضمن مجموع التصورات التي وضعها الكاتب لتجاوز هذه الفاجعة التي شكلت انقلابا تجاوز حدود العلاقة المرجعية بين المتخيل والواقعي إلى تحول المتخيل إلى واقع مجسد وكينونة مادية ، تفرض وجودها بالقوة–إلى مشروع سردي ملتبس وهجين وسجالي

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1324

ينفتح من خلاله النص على محيطه الجمالي والإيديولوجي والقيمي ليعد من خلاله مساءلة الكثير من القضايا الجمالية كموت المؤلف وموت الشخصية الروائية والعلاقة بين المتخيل والواقعي والغرائبي والمدهش،وما يترتب عن تداخل هذه العلاقات في الكتابة الروائية الجديدة التي يصل فيها التجريب إلى أقصى حدوده،بحيث لا يبقى من الرواية إلا روائيتها كما يقول بارت[9]،وفي هذا المستوى يبدو الراوي"الشاذلي العجمي"عاملا منشطا ومحفزا ومستفزا للمؤلف ومن خلاله للقارئ كون الرواية موجهة للقراءة والاستهلاك، وبالتالي على القارئ أن يغير عادات القراءة،وأن يدخل في لعبة السجال التي برمجها الراوي بدقة ،من أجل إعادة النظر في عملية التلقي برمتها،والبحث عن علاقة جديدة بين المعيار والعالم المتخيل؛فالمعيار والعالم يتحولان إلى قطبي تفاعل حيث يتحتم على القارئ أن يتدخل لأن الأوضاع التي كانت بالنسبة إليه مألوفة كالمعايير المعاصرة ومعطيات محيطه أصبحت فجأة غير قائمة أو غير حقيقية[10]، ولذلك عليه أن يتعود على مثل هذه الانقلابات المفاجئة التي تغزو إدراكه فتجعله يعيش حالة بارانوية كالتي عاشها عبد الحميد الكاتب في رواية"في مكتبي جثة"،ثم تحولت إلى حالة هذيانية مستمرة أدخلت الكاتب في صراع ومعاناة مع مخلوقاته المتخيلة ومع العالم الواقعي من حوله؛أو ذلك الذي يوهمنا الراوي بواقعيته الملتبسة ، ليحمل القارئ على الاعتقاد بأنه الهيئة السردية المجسدة نصيا والمؤهلة للتواصل مع القارئ عبر وساطة المروي له،أو ربما بدونها ، لأن قيم التجريب الروائي يمكن أن تفاجئنا بكل ما هو غير متوقع من الأفعال والأقوال ، وذلك أن فرج الحوار الذي يبدو في رواية "الموت والبحر والجرذ"يتمتع بكل سلطاته ويغزو حياض نصه كأنه أحد أباطرة الشرق القديم،ساخرا من مقولة موت المؤلف،فإنه في رواية"في مكتبي جثة"يبدو من خلال صورة الكاتب المجرد "عبد الحميد الكاتب" عاجزا عن التحكم في مخلوقاته ، وهو ما يخول الراوي أن يتمرد عليه أيضا وأن يواجهه على مستوى النص مواجهة تهكمية ذات طابع سجالي،حيث نجده يرد على هذه الفاجعة الغريبة التي ألمت بعبد الحميد الكاتب وتداولها الروائيون والنقاد،قائلا:« لا،لم يحدث أن مات أحد مخلوقاتي دون إذني...الخ»[11]، وقد أتى هذا الرد مستهجنا هذه الحادثة التي وقعت لعبد الحميد الكاتب،لكن هذا التعليق يفيض عن مقصديته السياقية ليتحول إلى خطاب ذي وظيفة إشهارية

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1324

مستقل بذاته ، وذي قيمة حجاجية تتيح له أن يحتل فضاء الصفحة الأخيرة أو الخلفية للغلاف ، يمارس من خلالها وظيفة الدعاية والإشهار للرواية ، وبذلك يتجاوز وظيفة التعليق ليصبح دفعة واحدة في مركز الضوء يثير الاهتمام ويستقطب العديد من القراء والراغبين في شراء الكتاب،أو الفضوليين الذين تشدهم الخطابات التي تنزع نحو المغالبة والاستعلاء والوثوقية،بخاصة وأن هذا الخطاب الإشهاري الواصف جاء في صيغة محك ذي خطاب ذاتي بقدر ما يعرض مضمونا قصصيا ما،يتحدث عن سلطات الراوي والصرامة التي يسير بها عالمه القصصي مصطنعا في ذلك قناع المؤلف ومستهدفا الإقناع بقوة الحجة والعبارة المقتضبة ؛ والمعروف أن«خطاب السلطة شامل ونهائي ولا يحتاج إلى تعليق، فكلما تقلصت قيمة الرسالة الدلالية إلا وزادت قدرتها على الإقناع»[12]، وهو سبيل يتبناه الخطاب الإشهاري من أجل تبليغ رسائله بدون اللجوء إلى أساليب الجدل والمحاججة،أو استعمال أقنعة تحجبها عن النظر كالإغراء والإثارة والمفاجأة.

ويبدو أن فرج الحوار والناشر قد اتفقا على مضمون الصفحة الخلفية للغلاف تماشيا من ناحية مع النسق الثقافي والجمالي الذي تنتمي إليه هذه الرواية التجريبية الملتبسة، ومحاولة توسيع دائرة التأثير بحيث يتجاوز القراء الفعليين إلى الجمهور الواسع الذي يمكن – بطريقة أو بأخرى – أن يسهم في الرفع من وضعية وسقف تداوله من ناحية ثانية،بخاصة إذا كان مضمون الخطاب يجمع بين خاصيتي الإقناع والاستفزاز ، ويوهم بأنه يقدم مضمونا مشابها ومختلفا في الوقت نفسه عن مضمون الكتاب،وهي خاصية أصيلة في« الفن الذي يعد عالما أزيد مرة من العالم،يشبهه فيما هو مختلف عنه»[13]، وهو توجه يحاول فرج الحوار أن يكرسه في نصوصه الروائية انطلاقا من منظور حواري ذي خاصية جدالية سجالية ، لا تعترف بالثبات،وترفض المساكنة وتنشد العراك والصراع على أكثر من مستوى من مستويات الكتابة والتخييل،وهو يرى أن« حالة الصراع هذه من مستلزمات العملية الإبداعية»[14]التي نذهب في تبنيها لرهان الخطاب السجالي إلى حد المبالغة والمغالطة والتضليل.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1324

3-عتبة المحيط النصي التخييلي:

يتبنى فرج الحوار في رواية"في مكتبي جثة"إستراتيجية نصية دينامية تقوم على المواجهة السجالية المتعددة الأصوات ، تجمع بين التخييل والعلم في إطار من الجدل المعرفي والجمالي الذي يندرج ضمن بلاغة المواجهة إلى حد يكاد النص الروائي أن يتحول إلى سجال ميتانصي يسائل راهن السرد الروائي،ويمعن في العمل على تقويض شكله التقليدي من أجل الإسهام في توليد أشكال روائية محولة ومعدلة ، تؤول فيها حركة المحكي وسيرورته نحو التقوض والتلاشي وعدم الاستقرار القيمي ؛ كما تجمع داخل خطاب سجالي مؤدلج بين الذوات والخطابات الممثلة للراهن الثقافي والسياسي، وما يمور فيه من مناقشات سجالية بين مجادلين يحملون وجهات نظر جمالية وإيديولوجية وعقدية وسياسية تصل حد الصدام والمفارقة والتناقض.

تبدأ المواجهة بداية صورية من خلال لجوء الكاتب إلى تحريف وظيفة الإهداء الدلالية والتداولية من سياق المجاملات إلى سياق الإقناع وتبادل المصالح ، وهو ما يجعل من خطاب الإهداء في رواية "في مكتبي جثة"قاعدة استنتاج وعبور تسمح بالانتقال من المأزق أو الورطة التي برمجها المؤلف–يقول:« إلى عبد الفتاح سعيد الذي أقض مضجعه المأزق الذي زججت فيه بنفسي طائعا مختارا،عند آويت جثة في مكتبي ، ثم عجزت عن إجلائها عنه ، إلى عبد الفتاح سعيد الذي أنقذني من المأزق وأنقذ الرواية من ورطة مستحكمة لولاه ، لولا الحل الذي تفتقت عنه مخيلته ، لاتجه هذا الكتاب وجهة أخرى من نوع القبول بالأحر الواقع ليس إلا»[15] – إلى الفضاء السجالي المشحون بالآراء المتناقضة وذات النزوعات الصدامية المعبرة عن تنازع قيمي وإيديولوجي وعقدي بالأساس،والذي وجد في التباس علاقة الرواية بالسياسة منطلقا ومدخلا لجدل مؤدلج تضمنه فضاء التمهيد،وأسهمت هذه الورطة بأبعادها التخييلية والسجالية في توسيعه وتعميمه حتى غدت الإستراتيجية النصية فضاء لصراع الكفاءات الإيديولوجية،أو المؤدلجة،والتي تظهر المجادل أو الفاعل السجالي إما جديرا بالثقة وقادرا على الإقناع بخصوصية رؤيته للعالم،أو مجرد محاور سفسطائي ينزع إلى المغالطة والتضليل

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1324

وتبني طرقا ترتكز على التمويه والتغليط والتدليس والتلبيس»[16] والإيهام من أجل جعل حس الالتباس عاما ، وهو دور ضمني تكفل بانجازه الكاتب المجرد الموجه للإستراتيجية النصية نحو مقصدية ترفض القبول بالأمر الواقع ، وتسعى إلى خلخلة اليقينيات الوثوقية ، حتى ولو أدى الأمر إلى سلوك مسلك المغالطة ، وخلق وضع ملتبس لا يمكن تجاوزه أو الخروج منه بقناعة ما لتعدد الأقنعة التي تحجب الرؤية بوضوح ، وليس معنى هذا أن«الكفاءة الإيديولوجية تشتغل بالضرورة ككابح للتأويل،ولكنها أيضا تشتغل كمنشط ، وفي بعض الأحيان تقودنا إلى اكتشاف أشياء داخل النص لم يكن الكاتب على وعي بها ، ولكن النص يوصلها بطريقة ما»[17]؛ وهو ما تحاول أن تنجزه رواية "في مكتبي جثة" من خلال إشاعة التخاطب السجالي وتنشيطه وتوجيهه نحو انشغالات الراهن الثقافي والسياسي والإيديولوجي ، لا من أجل معرفته وإنما من أجل إنتاج تتمة لهذا الراهن ، يمكن أن تندرج في إطار المسكوت عنه أو اللامقول بطريقة صريحة ، وإنما بطريقة ضمنية ، وداخل فضاءات حميمية تتموقع فيما بين الهامش والمركز ، حيث يتم –دائما–رصد الجدل والسجال الذي تمور به هذا الفضاءات بطرق مجازية ملتبسة تنسجم مع استقلالية العلامات والأشكال الفنية ، ولكن إلى الحد الذي لا تستطيع فيه هذه الأشكال أن تتنازل عن توصيل ما تشخصه من آراء ، وفي هذا السياق فإن«الأدب كسائر الفنون يعبر بطريقة معينة عن موضوع ملتبس وغير محدد"»[18]. وهو الإشكال الذي تطرحه أيضا رواية "في مكتبي جثة" وتحاول أن تشرك فيه القارئ باعتباره طرفا فاعلا في الإستراتيجية النصية القائمة على المواجهة والجدل والسجال ، وبدون تفاعله وتعاضده التأويلي لا يمكن لهذا السجال المؤدلج أن يتجاوز حدود السفسطة القائمة على النضليل والمغلطة .

يقدم التمهيد مشهدا سجاليا يعد من مشمولات خطاب المؤلف / الذات الحقيقية التي تقع خارج الملفوظ وتقيم على أرض الواقع ، وتنوبها في هذا المشهد السجالي ذات متخيلة تبنى بالقول وتسكن داخل الخطاب[19] ، ممثلة في عبد الحميد الكاتب / المؤلف المجرد ، الذي يحتل موقعين ، فهو يجمع بين ذات التلفظ وموضوعه ؛ فهو مصدر التلفظ والمنظم والموجه للتخاطب السجالي في مشهد التمهيد وأحد الفاعلين السجاليين فيه ، حيث

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1324

يتناول السجال علاقة الرواية بالسياسة ليفيض عن هذا الموضوع ويأخذ أبعادا حوارية نقدية مؤدلجة ، يتواجه خلالها المتخاطبون ، أو فواعل السجال ، وهم يتقنعون بأقنعة مختلفة ، ويضطلعون بأدوار تتناسب مع الرؤى الإيديولوجية التي ينطلقون منها ويدافعون عنها ؛ حيث يضطر كل من المتخاطبين المتساجلين polemiqueurs أن يدافع عن وجهة نظره ، و «أن ينحت صورة جيدة لنفسه وينشئ انطباعا حسنا بشأنه حتى يبرز في مظهر لائق ويكون لكلامه وقع على مخاطبه ، فنجاح القائل في خطابه مرتهن بمدى قدرته على تعزيز وجهة الإيجابي وإنقاذ وجهة السلبي من ناحية ، والحيلولة دون ما من شأنه أن يمس جسده أو هيبته وكرامته من ناحية أخرى »[20]، يضاف إلى ذلك أن الخطاب السجالي يتميز بكونه ضربا من الجدال الذي يتزع إلى المغالبة والهيمنة وفرض الرأي بطرق شتى إلى حد أن المتخاطب والنقاش السجالي يمكن أن يتحول إلى معركة ، و« في المعركة لا توجد حدود لاشتغال العنف »[21] في مستويي التلفظ والتعبير ، وقد يتجلى هذا العنف في شكل مواجهة خطابية تقتضي نوعا من التبادل التواصلي ، أو في شكل احتجاج اجتماعي أو سياسي أو إيديولوجي وفي هذا المستوى لابد للسجال أن يأخذ مسارا متعدد الوجه ، وأن يكون مسنودا بحجج عقلية ، وأن ينزع نحو التنقيب والتفكير النقدي ومعرفة الغير أو اللامبالاة [22] ،وذلك بحسب ما يقتضيه المقام التخاطبي من أهمية ومن تأثير ، ومن قدرة على التحكم والسيطرة على المشاعر والأهواء لحفظ ماء الوجه أو تلافي التورط فيما يمكن أن يجلب الهوس إلى الراس ، أو تبني موقفا هجوميا لرد الاعتبار أو الدفاع عن قناعات بعينها ،؛ فكرية أو عقدية أو إيديولوجية ، لأن في « السجال معركة من الصعب التفكير فيها »[23] ، أو توقع نتائجها ، ولذلك يحاول المتخاطبون ما أمكن التحكم في آثارها ، وقد يف منهم زمام الأمور ويصبح من الصعب قيادة الأهواء ، إلى حد تتحول فيه المواجهات السجالية إلى معركة حقيقية تستعمل فيها كل الأسلحة ، وهو ما توج المشهد السجالي المتضمن في التمهيد ، حيث خرج النقاش السجالي عن مقصدياته الجمالية ليتحول إلى سجال مؤدلج تهيمن فيه نزوعات المغالبة والتطاول والتجريح .

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1324

يستند الكاتب في عرض وتشخيص المشهد السجالي إلى رؤية فنية يعبر من خلالها إلى تخوم نصه ليسهم – عن طريق تلبسه بصوت الراوي – في إدارة التخاطب السجالي والمشاركة فيه رغبة منه في استباحة حياض المحكي وتحويل السرد إلى فعل تخاطبي واصف ، وبذلك يتخلص من حرج المقام ، فاسحا المجال أمام بعض الطقوس التحاطبية والحوارية التي يمكن وسمها بالمقهى الأدبي ، لغلبة المناقشات والحوارات على اهتمام رواد هذه المقاهي ، كالمقهى الذي كان يرتاده جماعة تحت السور منذ ثلاثينات القرن الماضي ، ومقهى الواحة في رواية " في مكتبي جثة " ، حيث تشكل هذه الفضاءات مجالا نشطا للتفاعل الرمزي ، والتبادل الثقافي والإيديولوجي قد يصل حد السجال والمشاحنات ذات الطابع الهجائي ، كما هي الحال في المشهد السجالي الذي قدمه الكاتب في خطاب التمهيد ، وجمع فيه بين متخاطبين أو مجادلين إيديولوجيين يصدرون عن قناعات جمالية وإيديولوجية وسياسية متناقضة ، حيث « يمكن أن يؤول السجال كعرض وتشخيص لتناقضات المثقف داخل المجتمع »[24].

يأتي صوت الكاتب في مطلع التمهيد مغلفا لصوت الراوي ، وناقلا لخطابه :«كان سي الشادلي العجمي كثيرا ما يقول إذا خضنا في موضوع الأدب وعلاقته بالسياسة :

– أن تفيض الرواية على السياسة أفضل من أن تفيض السياسة على الرواية !

فيبادره حمادي الجيلاني ساخرا:

– وما دليلك على هذا يا شادلي ؟

– إمامي في هذا الموضوع بلزاك يا حمادي .

فيهتف حمادي :

– السياسة أمامكم ، والسياسة قدامكم ، والسياسة على يمينكم ، والسياسة على شمالكم ، فأين المفر ؟ »[25]

وكأن التكلم المباشر يخيف الكاتب فيلجأ إلى توسيط الراوي وانتحال شخصيته وتبني رؤيته الجمالية ، وفي هذا السياق يقول دريدا : « إن التكلم يخيفني لأنني بدون أن أقول ما فيه الكفاية ، أقول دائما أكثر من اللازم »[26]؛ويبدو أن فرج الحوار – لسبب أو لآخر –

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1324

يفضل ألا ينسب شيئا مما يتناوله خطاب التمهيد إليه مباشرة ، لأن ما ورد فيه من تساؤلات وأفكار وشكوك لا يعكس دائما التفكير الحقيقي للكاتب ، ولذلك فإن اختفاءه خلف صوت الراوي ورؤيته يتيح له أن يكون أحد الأصوات السجالية الأكثر تطرفا وتوترا ، و« الرواية بالنسبة لنا بقدر ما هي عالم أو أكثر هي مركب ولعبة دقيقة من الأصوات »[27]؛ وقد جاء خطاب التمهيد مجسدا لهذه اللعبة ومبرمجا لها بطريقة تخاطبية سجالية متدرجة ، يمكن عدها بعدا تأسيسيا للعلاقات الإنسانية المتوترة والمتناقضة ، بسبب تعدد الآراء والأهواء ، وممارسة للتفكير بطريقة جدالية تتموقع ضمن حدود متحركة وغير قارة ، بسبب المواجهات الصدامية التي تصل إلى حد العنف ومحاولة التحكم في آثاره

يتقمص الكاتب دور الراوي في تسيير وتوجيه مسار التخاطب السجالي ، الذي يمكن وسمه بحوار التغالب والاستعلاء [28] ، وفيه يجمع الكاتب بالتدريج بين هيئات السجال في فضاء متخيل / مقهى الواحة ، فيبادر سي الشادلي العجمي / الراوي المجسد بإبداء رأيه في علاقة الرواية بالسياسة مفضلا تغليب ما هو روائي على ما هو سياسي ، فيناقضه حمادي الجيلاني ساخرا من وجهة نظره ، سالكا مسلك المواجهة والاختلاف ، متحديا خصومه الإيديولوجيين والسياسيين ، مستعملا أسلوب الاستفزاز والتجريح في كل مرة يخالفه احدهم فيما يراه صوابا ، ويتكرر هذا الموقف مما يؤدي إلى عدم التفاهم بينه وبين المتخاطبين الآخرين ، وهو ما يشير إليه المقطع التالي من خطاب المؤلف :

«وكان سي حافظ العتيقي كثيرا ما يردد إذا حضر سجالنا هذا :

ما أبشع أن تكتب الرواية بلغة السياسة !

فينقض عليه حمادي الجيلالي بشراسته المعهودة ويزأر :

ما هذا الكلام الفارغ ؟ ! ما هذه الميوعة ؟ ! .

ويزفر بحنق ، ثم يضيف :

غبي من يظن أن للرواية – وللأدب بصفة عامة – لغة خاصة به ، وإنما هي لغة الحياة .

فيتضاحك سي الفاضل التائب ، ويقول بتسامح :

وأنت الصادق يا حمادي ! »[29].

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1324

وهكذا يحتدم النقاش ويصبح تداول القول في مثل هذا المقام مجازفة وإشكالا نتيجة مغالاة حمادي الجيلاني وتعصبه لآرائه ، ونزعته إلى التهجم على خصومه حين تعوزه الحجة ؛ يعلق الكاتب على هذا التطور الذي بلغته المواجهة ، والتي تستقطب في كل مرحلة خصما آخر لحمادي الجيلاني ، يقول : «وكان بالإمكان أن ينتهي الموقف عند هذا الحد ، ولكن حمادي الجيلاني يزداد هيجانا ظنا منه أن سي الفاضل لم يتراجع عن رأيه إلا لأنه لا يراه أهلا للمنازلة ، ويصرح :

آراؤك الرجعية هذه هي سبب تخلفنا يا سي الفاضل !

البركة في الآراء التقدمية لسيادتك ! »[30].

وهكذا يزداد خصوم حمادي الجيلاني من فواعل السجال وهيئاته ، إلى الحد الذي تصبح فيه كلمته في مواجهة كلام الآخرين ، حيث يتحول السجال إلى جدال هجائي غير خاضع للرقابة الاجتماعية والقيمية ، لخروج حمادي الجيلاني عن تقاليد التخاطب وطقوس السجال التي «تتطلب التدليل انطلاقا من مقدمات صادقة وباعتماد مسالك تدليلية سليمة»[31] ، أو بالاستناد إلى سلطة ما تتجلى في«دفع المخاطب إلى أن يأتي بأمر ما قد يكون بقوة الحجة أو بالسلطان»[32]. ولما كان حمادي الجيلاني متمترسا داخل ذاته الخطابية وصوته الإيديولوجي ،فقد جاء خطابه معبرا عن ذاتية منغلقة داخل أطروحات المادية الجدلية ، وسمت خطابه بالنزعة الاحتجاجية المعارضة لكل الأطروحات التي لا تتبنى المنظور الماركسي ، والمعروف«أن سائر الخطابات موسومة بذوات قائليها على نحو تتنوع فيه أدوات الوسم ودرجات الذاتية »[33]، ولذلك نجده يتعلق بمنظور العنف الثوري ، ويشتط في مؤاخذاته لخصومه متعمدا في مواجهاته أسلوب التجريح والاتهام والعنف والإكراه والاستعلاء ؛ يقول الكاتب « بلغ الغضب بحمادي الجيلاني مبلغه فراح يرمي كل واحد منا بمثالبه ... »[34]. وقد أدى ذلك إلى غلبة خطاب الأهواء القائم على التضليل والإثارة ، مما جعل اللغة في مثل هذا المقام تصبح عاجزة عن التوصيل بل عقبة أمام التفاهم ،حيث «يمكن القول بأن الحوار قد لا يخلو من العنف المعنوي أو المادي »[35]، ومن لا يجد بدا للتواصل باللغة يكره

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1324

على استعمال جسده « أمسك سي حافظ العتيقي بكأس الشاي الذي جاء به الروندالة للتو ودلقه بهدوء على رأس حمادي الجيلاني ، وعمت الفوضى »[36] .

إن الرهان الذي تقوم عليه هذه المواجهات السجالية ، سواء أكانت سلمية أم عنيفة ، يتمثل في الوصول إلى إقناع المخاطب أو حمله على ذلك بطريقة منالطرق ، بخاصة إذا كان موضوع السجال ذا طابع إيديولوجي ، حيث يتحول السجال إلى معركة إيديولوجية يحاول كل طرف أن يخرج منها منتصرا مهما كلفه الأمر ، ولذلك يلجأ بعض المساجلين إلى نوع من الإثارة العاطفية والجدل الهجائي ، قصد إفحام الخصم وتبكيته : « وقهقه حمادي بسوقية وأضاف:

– سي عبد الحميد ، لو ما كنت كيفها للا مرتك ، ما كنت تنجم تنيك ...!»[37] ، فلا يجد هذا الخصم من بد يخرجه من حالة التبكيت هذه وعدم التفاهم ، سوى الرد بطرق حاسمة ، بغض النظر عن النتيجة التي تتوج النقاش ؛ إذ يمكن أن تتدخل عوامل غير منطقية تسهم في حسم النقاش ولو بطريقة لا أخلاقية مشينة وفاضحة ؛ وهو ما حتم على الكاتب أن يبدي رأيه بطريقة شبه مباشرة : « أنا أكره التعصب وذويه ! »[38]، ويتبعه بإمضائه « عبد الحميد الكاتب ، تونس في 2002/04/12»[39]، تأكيدا وشهادة تتضمن وجهة نظر الكاتب ، يمكن اعتبارها مقدمة كبرى يعبر من خلالها القارئ من تخوم النص إلى عوالمه التخييلية التي تعد بطريقة ما توسيعا وتحريفا لمضمون خطاب التمهيد ، حيث تنتصر الروائية والتخييل على كل الأطروحات الإيديولوجية والسياسية والقيمية وحتى الأجناسية ، فليس في هذه الرواية سوى وهم الرواية البوليسية ، التي بقيت مشروعا معلقا ، وهاجس سرديا من قبيل الحلم أو التعليق الميتانصي الذي يتكرر بطرائق مختلفة ووفق تصور مبرمج سلفا .

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1324

الهوامـــش

1) w.krysinski, carrefours de signes, Mouton, éditeur, Lahaye, Paris, New York, 1981, p 252.

2) Ibid, p 252

3) بشير الوسلاتي ، فرج الحوار ، الكتابة حرفة ومحنة ... (حوار)، مجلة الحياة الثقافية، وزارة الثقافة ، تونس ، السنة 22 ، عدد 82 ، فيفري 1997 ، ص 53 .

4) المرجع نفسه ، ص 55.

5) المرجع نفسه ، ص 54 .

6) فرج الحوار ، في مكتبي جثة ، دار الميزان للنشر ، حمام سوسة ، تونس ، ط 1 ، 2004 ، ص 21.

7) Wolfgang Iser, l acte de lecture, théorie de l effet esthétique, Pierre Mardaga éditeur, Bruxelles,1985, pp 391-392.

8) بشير الوسلاتي ، م. س. ص 54.

9) R. barthes, S/z, seuil 1970, p 11.

10) W.Iser, l acte de lecteur , p 370.

11) الرواية ، ص 38.

12) عمر اوكان ، مدخل لدراسة النص والسلطة ، إفريقيا الشرق ، الدار البيضاء ، ط1 ، 1991 ، ص 17.

13) W. Iser, L acte de lecture, p 346.

14) بشير الوسلاتي ، م. س ، ص 54.

15) الرواية ، ص 05.

16) حسان الباهي ، الحوار ومنهجية التفكير النقدي ، إفريقيا الشرق ، الدار البيضاء ، 2004 ، ص 164.

17) U.Eco, lector in fibula, le rôle du lecteur, traduit par Mysiem Bouzaher, Grasset, Paris 1985, p 230.

18) U. Eco, L œuvre ouverte, traduit par C. Roux de Bezieux, seuil 1965, p 38 et note 3= 2 .

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1324

19) حاتم عبيد ، في تحليل الخطاب ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بصفاقس ، ط1 ، 2005 ، ص 188 .

20) المرجع نفسه ، ص 120 .

21) Michel Murat , polémique et littérature , in la parole polémique (coll.) honore champion éditeur , Paris , 2003 , p 11 .

22) Ibid , p 12 .

23) Ibid , p11 .

24) Ibid , p11 .

25) الرواية ، ص7 .

26) أوسكار طاكا ، أصوات الرواية ، ترجمة حسمي مصطفى ، الحوار الأكاديمي والجامعي ، الدار البيضاء عدد4 ، أبريل 1988 ،ص 10 .

27) المرجع نفسه ، ص10 .

28) حسان الباهي ، الحوار ومنهجية التفكير النقدي ، ص 163 .

29) الرواية ، ص 7 ، 8 .

30) الرواية ، ص 8 .

31) حسان الباهي ، الحوار ومنهجية التفكير النقدي ، ص 164 .

32) المرجع نفسه ، ص 224 .

33) حاتم عبيد ، في تحليل الخطاب ، ص 117 .

34) الرواية ، ص 9 .

35) حسن الباهي ، الحوار ومنهجية التفكير النقدي ، ص 224 .

36) الرواية ، ص 11 .

37) الرواية ، ص 10 .

38) الرواية ، ص 11 .

39) الرواية ، ص11 .

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1324